أ.د. هدارة: رؤية سكندرية

بقلم أ.د محمد زكريا عناني*

إذا كان اسم محمد مصطفى هدارة قد ارتبط بصورة أساسية بمجموعة من المؤلفات الكبرى، مثل: مشكلة السرقات في النقد العربي، واتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، وتيارات الشعر العربي المعاصر في السودان؛ فإنه -من ناحية أخرى- ارتبط بشكل عضوي بالإسكندرية، حتى أصبح من أبرز ركائزها الثقافية في الجامعة، وفي قصور الثقافة، وفي البرامج الثقافية بالقناة الخامسة، وفي أنشطة الجمعيات الثقافية بها، وعلى رأسها هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ومن خلال الاتصال المباشر بأدبائها وفنانيها ومثقفيها.

وهذه الكلمة تحاول أن تسجل جانباً من إسهامات ((الأستاذ)) في خدمة الحياة الثقافية بالإسكندرية، وهي من الكثرة والغزارة والتنوع بحيث يحتاج تحليلها إلى مدى أرحب مما نحن فيه بكثير.

الشعر والشعراء

ففي مجال الشعر نشير إلى ما كتبه عن ديوان ((أنشودة الطريق لكمال نشأت))[1]، وإلى دراسة حول ((شعر عبد المنعم الأنصاري بين التراث

---

* كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.

(١) دراسات في الشعراء العرب المحدثين ٢/٣٥-٥٧، الإسكندرية ١٩٧٤.

والمعاصرة..))[١]، وإلى حديثه عن كل من عبد العليم القباني[٢]، وعلي البـــاز[٣]، وأحمد السمرة[٤]، ومحمد برهان[٥]، وإسماعيل عقـــاب[٦]، وحميـــدة عبـــد الله حميدة[٧]، وحامد نفادي[٨]، وربيع عبد العزيز[٩] إلخ..

وتستطيع أن تلمح في يسر، أن منطلق الرؤية عند ((الأستاذ))، يكمن في المعايشة العميقة لحركة الإبداع الشعري، بغض النظر عن انتماءات أصحابه، فالذي يعنيه في المقام الأول هو الطاقة الفنية للشعراء، ثم تأتي بعـــد ذلـــك اعتبارات أن يكون تقليدي الديباجة مثل محمد برهان، أو صـــاحب نـــبرة متمردة حارة كالأنصاري، وهو يتابع جهود الشعراء الذين ارتبطوا بالشكل الشعري المألوف، من أمثال القباني والباز والسمرة وإسماعيل عقاب، ولكنه يحتفي أيضاً بأصحاب تجارب الشعر الحر مثل نفادي ومثل حميـــدة الـــذي يكتب عنه:

---

(١) السابق ٢/٩٥-١٢٦، والبحث منشور قبلاً في الكتاب التذكاري عن عبد المنعم الأنصـــاري الذي نشرته هيئة قصور الثقافة - وشارك فيه كل من د. هدارة وعبد العال القباني ود. محمد زكريا عناني، القاهرة ١٩٩١.

(٢) دراسات في الشعراء العرب المحدثين ٢/٣٢٩-٣٤٨.

(٣) حلقة تلفزيونية عن شعر د. علي الباز.

(٤) دراسات في الشعراء العرب المحدثين ٢/٢١٩-٢٣٦.

(٥) مقال عن الطبيعة في شعر محمد برهان، سيأخذ طريقه للنشر في مجلة الكلمة المعاصرة بالعدد الرابع.

(٦) دراسات في الشعراء العرب المحدثين ٢/٣٤٩-٣٥٤.

(٧) دراسات في النقد الأدبي، بين النظرية والتطبيق، الإسكندرية ١٩٨٩ ص٣٠٩/٣٢٢.

(٨) راجع حامد نفادي: امرأة في محنة بمقدمة د. هدارة، الإسكندرية ١٩٨٥.

(٩) مقال بجريدة الأهرام عن التجربة الشعرية عند ربيع عبد العزيز.

((ولغة الشاعر تدفعني للحديث عن موسيقى شعره، فهو قد آثر شعر التفعيلة، واستخدم ألواناً مختلفة منها، تتناغم مع تجربته صعوداً وهبوطاً وحدة ورخاوة، ونجده في بعض قصائده يمزج بين تفعيلات متداخلة، في محاولة تجريبية، لكي لا تكون التفعيلة الواحدة إيقاعاً ثابتاً نمطياً، ولكن الحق الذي ينبغي أن يقال: إن الشاعر في قصائده التي التزم فيها التفعيلة الواحدة، قد ارتفع بالقيمة التعبيرية والإيقاعية، بحيث تميزت هذه القصائد على التجارب المشتركة التفعيلات، كما نحسّ أن القوافي قد تسابقت إليه في إيقاع جميل في تلك القصائد ذاتها، بينما توارت في معظم تجاربه الأخرى، و((الأستاذ)) يعجب بالتفاعل الحميم بين الإنسان والطبيعة عند حميدة في قصائده، التي كتبها عن قريته (مرزا) -وتقع في شرق الإسكندرية-، ويستهويه أن الصور عنده ((ليست حلية بلاغية يخلع بها على الكلام رونقاً، كأنها رداء مليء بالتهاويل والنقوش، بل هي جزء من نسيج التجربة الشعرية، تنبع من فكر الشاعر ومن أعماق نفسه))[1].

ما الذي جعل ((الأستاذ)) يكرس كل هذه العناية، كل هذا الفيض من التأمل والتحليل للديوان الأول لشاعر شاب ليس له شيء من الشهرة؟ الإجابة يجب أن ينظر إليها في ظل هذا الفيض من الشواغل التي كان يخوضها، مما كان من البديهي أن يصرفه عن أمر حميدة، ومن هم على شاكلته، فضلاً عن أن عوامل كثيرة كان من المنطقي أن تجعله يقصر اهتمامه على الأشكال الشعرية ((العريقة))، لكن حسّ الناقد المؤمن برسالة الفن كانت له الغلبة، ومن ثم كانت هذه الوقفة أمام شعراء الإسكندرية بصورة عامّة، وأمام الشعراء الناشئين أو الذين

(١) دراسات في النقد الأدبي، ص٣٤٩.

عاشوا بعيداً عن الضوء بصورة خاصّة، وهذا الذي قلناه عن حميدة، ينطبق إلى حدّ ما على ما كتبه عن حامد نفادي -الذي رحل عن دنيانا مؤخراً-، كما ينطبق على ربيع عبد العزيز صاحب دواوين خمائل الريم، وسريرة المجداف، وسؤال في زمن السامري إلخ..

القصة والرواية

و لم يكن نصيب القصة والرواية بأقل من نصيب الشعر. ومما كتبه الأستاذ في هذا الصدد، دراسة هامة عن ((الاتجاهات الجديدة في القصة السكندرية القصيرة المعاصرة))[١]، وعن مجموعة سعيد سالم ((قبلة الملكة))[٢]، وكذلك مجموعة سعيد بكر ((أحزان الرجل القديم))[٣] و((طيور بلا وطن)) لمجدي عبد النبي[٤]، كما تناول بالدراسة رواية د. علي البارودي ((حدث في رحلة الخريف))[٥]، ورواية محمد الجمل ((من كفر الأكرم إلى باريف))[٦]، فضلاً عن أنه كتب دراسة لرواية مصطفى نصر ((الجهيني))[٧]، التي صدرت عن سلسلة ((المواهب)). والطريف أن الطبعة الأولى منها حملت على غلافها -بدلاً من اسم المؤلف- أنها تأليف محمد

---

(١) دراسات في النثر العربي الحديث، الإسكندرية ١٩٩٢، ص٢٨١-٢٩٨.

(٢) السابق، ص٣١١-٣١٥.

(٣) السابق، ص٣١٦-٣٢١.

(٤) من سلسلة ((إشراقات أدبية)) العدد ١٤٣ وراجع شهادة ((الدكتور مصطفى عبد الشافي عن رعاية د. هدارة لمحاولاته القصصية)) (لم تنشر بعد).

(٥) دراسات في النثر العربي الحديث ص٢٦١-٢٧٠.

(٦) السابق، ٢٥٨-٢٦٢.

(٧) مقدمة رواية الجهيني، نشر المركز القومي للفنون والآداب (سلسلة المواهب) القاهرة ١٩٨٤م.

مصطفى هدارة، مما أدى إلى رواج مفاجئ لهذا العمل[١]، إلى أن تَمَّ تدارك الخطأ، وسحبت النسخ المتبقية من هذه الطبعة، وتَمَّ تعديل اسم المؤلف على غلافها.

وقد كان ((الأستاذ)) من أوائل مَن كشفوا عن كتابات ((تيار الوعي))[٢] عند كلٍّ من محمود عوض عبد العال، ومحمد حافظ رجب، والعيد الورقي، وإدوار خراط، وحلل ما ارتكزوا عليه مِن رموز وإحالات، وتقطيع فكري وأسلوبي، وسقوط للحواجز بين الحلم واليقظة الشعورية، وبين الوعي واللاوعي، والظاهر والباطن، وما يؤدي إليه ذلك من تعدد الدلالات للعمل الأدبي الواحد[٣].

ومن الضروري التنويه بما كرسه ((الأستاذ)) من وقت للكتابة، حتى عن أعمال بعض الأدباء الناشئين، ولم يكن صنيعه مجرد تشجيع روتيني، كما يحدث في معظم الأحيان، وإنما جاءت كتاباته غوصاً عميقاً في صميم محاولاتهم، ولعل أوضح مثال على ذلك، ما قدمه من مجموعة ((أحزان الرجل القديم))، التي يعرض لإحدى أقاصيصها بقوله: وفي الأقصوصة (الإرث) آخذ على القاص موضوع التفسير. القاص ليس مطلوباً منه التفسير أبداً، نحن معه في الإيحاء والدلالة الشاعرية للكلمة في الرسم بالصورة، لكن التفسير يخرج الأقصوصة عن جمالها الفني.. ثم يحدد عناصر الجودة في هذه المجموعة، والتي تتمثل في أن واقعية هذا القاص ((ليست الواقعية التسجيلية، لكن الواقعية الإنسانية، إذ يلتقط مشاهد من

---

(١) من مقال لمصطفى نصر عن أثر د.هدارة في تكوينه الروائي (لم ينشر بعد).

(٢) راجع مقالة: اتجاهات جديدة في القصة السكندرية المعاصرة، وأيضاً كتاب د.محمود الحسيني: تيار الوعي في الرواية المصرية المعاصرة، القاهرة سنة ١٩٩٧م.

(٣) من مقالة اتجاهات جديدة، ضمن كتابه: دراسات في النثر العربي الحديث ٢٩١.

الحياة من مواقف درامية حية، يلتقطها بذكاء، وكما نقول: إن القصة القصيرة عبارة عن شريط صغير ضيق، لقطة واحدة، وهذه اللقطة يرتكز عليها القاص، وقد نجح سعيد بكر إلى حدّ كبير في هذه اللقطات، في معظم قصصه، كما أن شخصياته قليلة جداً، فهو يهتم بالحدث أكثر من اهتمامه بالشخصيات، وهذا أسلوب جيد في القصة القصيرة))[1]، يكشف عن فهمه الصحيح لاتجاهاتها الجديدة.

وتبين دراسات د. هدارة عن الرواية السكندرية، مدى عمقِ أستاذيَّتِه وقدرته الكاشفة عن الأعمال ذات المغزى، مثل حديثه المستفيض عن رواية محمد قاسم ((أشياء لا تملكها المرأة)) وتنويهه بإجادة الكاتب المراوحة بين الماضي والحاضر، في تداخل وتشابك يبعد بنا عن السرد النمطي، مع نقده للنزعة التقريرية عنده، ومثل وقوفه المتأني أمام رواية ((الفيافي)) الصغيرة الرائعة لسعيد بكر (والتي استحق عليها جائزة الدولة التشجيعية في الرواية)، والإشادة ببراعته في استخدام الرمز استخداماً بارعاً في التعبير عن حركته النفسية، ومشاعره الداخلية، ومن ذلك الجمل القتيل الذي ظلّ يتابع التغيرات التي طرأت على هذا الحيوان الهائل الذي صدمته سيارة، وانتهى إلى أن صار كومة مجهولة الهوية، وهو يرمز لنفسه التي قتلها الخواء والوحشة، وملأها الخوف من المستقبل، والوصول إلى تلك النهاية الحزينة أو الكومة المجهولة الهوية.

من آفاق العطاء

لقد اعتنت الندوات والكتابات المختلفة عن د. هدارة، مما ظهر عقيب رحيله المباغت، بما قدم من كتب، وما كان له من تلاميذ ومعارك أدبية، ولا

(١) دراسات في النثر العربي الحديث، ص٣٢٠.

شك أن الشخصيات الثرية بعطائها تتعدى جوانبها، بحيث يوجد على الـــدوام جديد يمكن أن يقال.

والشيء الذي ينبغي أن يسجل للأستاذ، أنه كان على وعي عميق بمـــدى مسؤوليته تجاه الواقع الأدبي الذي يعيش فيه، وكان لذلك حريصاً على أن يعايش الحياة الثقافية بالإسكندرية، بما يسمح بالجزم بأنه كان من أكثر أساتذة الجامعـــة فاعلية، أو على حدّ الكلمات التي جاءت في كتيب ((رواد غـــرب الـــدلتا)) - سلسلة رواد معاصرون، الصادر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة[١].

((لا ريب في أن للإسكندرية موقعاً أثيراً في مكتب الدكتور هدارة، فهـــي مهد الطفولة، ومدارج الصبا، ومسارح الشباب، لذلك لم يكن غريباً أن يحتضن الدكتور هدارة الحركة الأدبية والثقافية بها، ويقدم الرعاية لأدبائها ومبدعيها شباباً وكهولاً وشيوخاً.. ويمضي بها قدماً مسدداً خُطى الناشئة، ومضيئاً الطريق أمـــام الكبار بالنقد البناء والرعاية الحانية)).

ولعل مما ينبغي أن يوضع في هذا الاعتبار رئاسته لنادي القصة بالإسكندرية، وإشرافه أو مشاركاته في العديد من المؤتمرات الأدبية، التي تتصل بالإســـكندرية وأعلامها، مثل مؤتمر محمود بيرم التونسي، الذي عقد بالإسكندرية وقـــدم فيـــه دراسات موسيقية حول مقامات بيرم التونسي[٢]، كما كانت له مشاركة فعالة

---

(١) انظر من منشورات الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة رواد معاصرون) رقم ١: رواد غرب الدلتا ص٤٣-٥٣، وراجع أيضاً كتاب الرافعي (العدد ١١): الدكتور محمد مصطفى هدارة، الأصيل معاصراً.

(٢) راجع: بيرم التونسي في ذكراه المئوية (الهيئة العامة لقصور الثقافة) القاهرة سنة ١٩٩٣م.

في المهرجان الذي أقيم حول عبد الله النديم[١]، وحول الرواية في إقليم غرب الدلتا[٢]، والذي اعتبر من أهم الأحداث الثقافية بالمدينة، وطبعت أعمال هذا المؤتمر في كتاب ضم مجموعة من الدراسات الهامة، ولعل آخر إسهاماته أنه أشرف على الاحتفالية الكبرى التي تم فيها تكريم د. محمد زكي العشماوي[٣] -أمدَّ الله في عمره- وطبعت أعمال هذا الملتقى ضمن سلسلة ((الكتاب التذكاري)).

وهكذا، فإن سجل العطاء زاخر، وقد أعطى الرجل للإسكندرية الكثير، ومن ثم فإننا نتوقع منها، وهي المدينة المعطاء، أن تصون اسمه، وتشمله بما هو جدير به من تكريم ووفاء، وتحافظ على تراثه الأدبي الغزير المتنوع، والذي لا تضم الكتب المطبوعة إلا جانباً محدوداً منه، بينما يبقى الجانب الأكبر مبثوثاً هنا وهناك، ما بين مقالات ولقاءات، وأحاديث إذاعية وتلفزيونية، وتقارير لم تنشر، مما ينبغي جمعه والحرص على حفظه من الضياع.

(١) راجع: عبد الله نديم: قراءات وأبحاث (الكتاب التذكاري)، إصدار هيئة قصور الثقافة سنة ١٩٩٦م.

(٢) راجع أبحاث مؤتمر الإبداع الروائي في إقليم غرب الدلتا - إصدار هيئة قصور الثقافة كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٩٣م، بإشراف د. هدارة.

(٣) راجع: الكتاب التذكاري الصادر عن هيئة قصور الثقافة سنة ١٩٩٧ بإشراف د. هدارة.

openkandil.com